سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

خواطر حول السفر

وشرح لأدعيته وأذكاره

د. الصغير بن عمار

-حفظه الله-

خواطر حول السفر، وشرح لأدعيته وأذكاره[1]

المقدمة 2
المركوبات المعاصرة مذكورة في القرآن 2
المركوبات المعاصرة مذكورة في السنة 4
شرح دعاء السفر 7
المشركون: يخلصون الدعاء في الشدة، ويشركون في الرخاء 9

1- هذه محاضرة ألقيتها في المسجد بتاريخ 12 جمادىٰ الأولىٰ 1446، الموافق لـ 14 سبتمبر 2024، وهي موجودة في قناتي الرسمية: https://www.youtube.com/watch?v=7SfQZBl1iww

خواطر حول السفر، وشرح لأدعيته وأذكاره

المقدمة

الحمد لله علىٰ نعمه الظاهرة والباطنة، وله الشكر سبحانه علىٰ مِنَّة الإسلام، وهِبة الإيمان، وأشهد ألَّا إلـٰه إلَّا الله، الرحيم الرحمـٰن، الواسع المـنَّان، لا نهايةَ لسلطانه، ولا حَدَّ لإحسانه، وسِع بعلمه جميعَ المـخلوقات، وبقُدرته جميعَ المـقدورات.

وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه المـصطفىٰ، ورسولُه المـُجتبىٰ، صلَّىٰ اللهُ وسلَّم وبارَك عليه في الآخرة والأولىٰ، وعل آله وأصحابه، أهلِ البرِّ والإحسانِ والتُّقىٰ، وأولي العلومِ والحُجَجِ والنُّهىٰ.

أمَّا بعدُ،

فإنَّ اللهَ -بفضله- سخَّر لنا مِن الوسائل ما يسَّر به أسفارَنا، وقرَّب لنا به المـسافات، قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾[إبراهيم: ٣٢].

وقال ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[الحج: ٦٥].

وقال تعالىٰ فيما سخَّر لنا مِن الأنعام في مطلع سورة النحل: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[النحل: ٧].

المركوبات المعاصرة مذكورة في القرآن

وقال بعدها: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[النحل: ٨].

ذكر اللهُ في هذه الآية نوعين مِن وسائل النقل، ومركوبات السفر: [2]

1. نوعٌ رآه الناسُ، وهو: الخيل والبغال والحمير.
2. ونوعٌ لم يعيِّنه، لأنَّهم لم يرَوه ولم يعرفوه يومئذ، وإنَّما أشار أنَّه سيخلُقه لهم.

2- انظر «مِن كل سورةٍ فائده» للشيخ عبد المالك رمضاني (ص 132-136).

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [3]:

«ذكر اللهُ جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنَّه يخلُق ما لا يعلَم المخاطَبون وقتَ نزولها، وأَبْهَم ذلك الذي يخلقُه...

وقد شوهد ذلك في إنعام الله علىٰ عباده بمركوبات لم تكن معلومةً وقتَ نزول الآية: كالطائرات، والقطارات، والسيارات.

ويؤيد ذلك إشارة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ ذلك في الحديث رواه مسلم في «صحيحه»[4] عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واللهِ، لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَىٰ عَلَيْهَا، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَىٰ الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ**» .

ومحلُّ الشاهد من هذا الحديث قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ**[5] **فَلَا يُسْعَىٰ عَلَيْهَا**»، فإنَّـه قسَمٌ مِن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّـه ستُترَك الإبلُ فلا يُسعىٰ عليها، وهذا مُشاهَدٌ الآن للاستغناءِ عن رُكوبها بالـمَراكب المذكورة.

وفي هذا الحديث معجزةٌ عُظمىٰ، تدلُّ علىٰ صِحَّةِ نُبوَّتِـه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كانت معجزاته -صلواتُ الله عليه وسلامه- أكثر مِن أن تحصَر».

3- «أضواء البيان» (2/ 334-335).

4- (155).

5- القَلُوص: الناقة الشابة. وتُجْمَع علىٰ قِلاص وقُلُص. «النهاية» (4/ 100).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مشارق الأنوار» (2/ 185): «القَلُوصُ: هِي فَتِيَّاتُ النُّوق، وجَمعهَا قَلَائِص، وَمِنْه قَوْله فِي خبر عِيسَىٰ: «**وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَىٰ عَلَيْهَا**»، أَي لَا يخرُج ساعٍ لـجَمع الزَّكَوات مِن الإِبِل وغيرِها، لِقِلَّة حَاجَة النَّاس للمال، واستغنائهم عن ذلك، كما قال آخرَ الحديث: «**ولَيَدْعُوَنَّ إلىٰ الـمال فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ**»».

قلت: وفي بعض الروايات الأخرىٰ للحديث -في «الصحيحين»-: «**ويَفِيضَ المَالُ حَتَّىٰ لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**».

وقال العلامة ابنُ عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [6]

«فَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِن مُعْجِزَاتِ القُرْآنِ الغَيْبِيَّةِ العِلْمِيَّةِ، وأَنَّهَا إِيمَاءٌ إِلىٰ أَنَّ اللهَ سَيُلْهِمُ البَشَرَ اخْتِرَاعَ مَرَاكِبَ هِيَ أَجْدَىٰ عليهم مِنَ الـخَيْلِ والبِغَالِ والـحَمِيرِ، وتِلْكَ العَجَلَاتُ الَّتِي يَرْكَبُهَا الْوَاحِدُ وَيُحَرِّكُهَا بِرِجْلَيْهِ وَتُسَمَّىٰ (بِسِكْلَاتٍ) ، وأَرْتَالُ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ، والسَّيَّارَاتُ الـمُسَيَّرَةُ بِمُصَفَّىٰ النِّفْطِ وَتُسَمَّىٰ (أُطُومُوبِيلَ) ، ثُمَّ **الطَّائِرَاتُ** الَّتِي تَسِيرُ بِالنِّفْطِ الـمُصَفَّىٰ فِي الْهَوَاءِ. فكُلُّ هَذِهِ مَخْلُوقَاتٌ نَشَأَتْ فِي عُصُورٍ مُتَتَابِعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا مَنْ كَانُوا قَبْلَ عَصْرِ وُجُودِ كُلٍّ مِنْهَا.

وإِلْـهامُ اللهِ النَّاسَ لِاخْتِرَاعِهَا هُوَ مُلْحَقٌ بِخَلْقِ اللهِ، فاللهُ هُوَ الَّذِي أَلْـهَمَ الـمُخترِعِينَ مِنَ البَشَرِ بِمَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الذَّكَاءِ والعِلْمِ وبِمَا تَدَرَّجُوا فِي سُلَّمِ الـحَضَارَةِ واقْتِبَاسِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ إِلىٰ اخْتِرَاعِهَا، فَهِيَ بِذَلِكَ مَخْلُوقَةٌ لله تَعَالَىٰ لِأَنَّ الْكُلَّ مِن نعْمَتِه».

يقول العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدة له قالها أوَّلَ ما ركِب سيارةً مسافرًا للحج[7]:

يـا راحِلِـينَ إِلـىٰ الحِمَـىٰ بِرَواحِـلٍ ... تَطـوي الفَـلَا والبِيـدَ طَـيَّ الـمُسْـرِعِ

لِيسَـتْ تَبُـولُ ولا تَـرُوثُ ومـا لَـهَا ... رُوحٌ تَـحِـنُّ إِلـىٰ الرَّبِيـعِ الـمُمْـرِعِ

مـا استُولِدَتْ مِـن نُوقِنَـا بَـلْ صُـنعُهَا ... مِـن بعـضِ تعلـيمِ اللَّطيـفِ الـمُـبدِعِ

كَمْ أوصَـلَتْ دارَ الـحَبيبِ وكَـمْ سَـرَتْ ... بِحُمُولهـا نحـوَ الـدِّيارِ الشُّسَّـعِ

6- «التحرير والتنوير» (14/ 111).

7- «المجموعة الكاملة» (7/ 473).

المركوبات المعاصرة مذكورة في السنة

عن عبد الله بنِ عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: سمعت رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَىٰ سُرُوجٍ، كَأَشْبَاهِ الرِّحَالِ، يَنْزِلُونَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الـمَسْجِدِ، نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ العِجَافِ، اِلْعَنُوهُنَّ، فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ**»، الـحديثَ.[8]

وفي هذا الـحديث عدَّةُ معجزاتٍ، منها: -وهو ما نحن بصدده- اختراعُ هذه الـمركوباتِ الـحَديثة، وقد جاء الـحديثُ في رواية الـحاكم (8346) بلفظ: «**سَيَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَىٰ الـمَيَاثِرِ حَتَّىٰ يَأْتُوا أَبْوَابَ مَسَاجِدِهِمْ**».

قال عَبْدُالله بْنُ عَيَّاشٍ القِتْبَانِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ -أحدُ رواة الـحديث-: قُلْتُ لِأَبِي: **ومَا الـمَيَاثِرُ؟** قال: «**سُرُوجًا عِظَامًا**». قال الـحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.

قال العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ[9]: «وهذا يعني أن هذه السروج التي يركبها أولئك الرجال في آخر الزمان ليست سروجًا حقيقية توضع علىٰ ظهور الخيل، وإنما هي أشباه الرحال».

ثم قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «وبهذا يتبيَّن لك -بإذن الله- أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُشيرُ بذلك إلىٰ هذه الـمَركوبة التي ابتُكِرَت في هذا العَصر، ألا وهي السيارات، فإنَّها وَثِيرَةٌ وطيئة ليِّنةٌ كأشباه الرِّحال، ويؤيِّد ذلك أنَّـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سمَّاها «بيوتًا» في حديث آخرَ[10]، لكن تبيَّن فيما

8- رواه أحمد في «الـمسند» (7083)، والـحاكم في «الـمستدرك» (8346)، وصححه الألباني في «الـصحيحة» (2683).

9- «الصحيحة» (6/ 415).

10- هو في «الصحيحة» (93)، ولفظُه: «**تَـكونُ إبلٌ للشَّياطينِ، وبُيوتٌ للشَّياطينِ: فأمَّا إبلُ الشَّياطينِ فقد رأيتُها، يخرجُ أحدُكُم بنَجيباتٍ معَهُ قد أسمنَها، فلا يَعلُو بعيرًا منها، ويمرُّ بأخيهِ قدِ انقُطِعَ بِهِ فلا يحملُهُ، وأمَّا بيوتُ الشَّياطينِ فلم أرَها**». رواه أبو داود في «سننه »(2568)، وضعفه الألباني بعد أنْ كان قد صححه.

بعدُ أنَّ فيه انقطاعًا».

قال الألباني في «الصحيحة» (1/ 195):«**والظاهر أنه** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **عنىٰ بـ «بيوت الشياطين» هذه السيارات الفَخمة التي يركبُها بعضُ الناس مفاخرةً ومباهاةً**، وإذا مَرُّوا ببعض المحتاجين إلىٰ الرُّكوب لم يُركِبُوهم، ويرَون أنَّ إركابَهم يتنافىٰ مع كِبريائهم وغَطرسَتِهم؟ فالحديثُ مِن أعلام نُبوَّتِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

شرح دعاء السفر

روىٰ مسلم في «صحيحه» (1342) عن ابن عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ رَسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان إذَا اسْتَوَىٰ علَىٰ بَعِيرِهِ خَارِجًا إلىٰ سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قالَ: «﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[الزخرف: ١٣ - ١٤]، **اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ في سَفَرِنَا هذا البِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ العَمَلِ ما تَرْضَىٰ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هذا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ في الأهْلِ، اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ مِن وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المَالِ وَالأهْلِ**». وإذَا رَجَعَ قالَهُنَّ، وَزَادَ فِيهِنَّ: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**».[11]

فكان رَسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا رَكِبَ واستَقرَّ عَلىٰ ظَهرِ بَعيرِه -وهو الجمَلُ، ويدخُلُ فيه كلُّ أنْواعِ الدوابِّ الَّتي تُركَبُ والوَسائلُ الحَديثةُ- خارجًا مِنَ المَدينةِ إلىٰ سَفرٍ ما، يذكُرُ اللهَ ويَقولُ: «**اللهُ أَكبرُ**»، ثَلاثَ مرَّاتٍ، وتكبيرُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندَ الاسْتِواءِ والارْتفاعِ فوقَ الدابَّةِ استِشْعارٌ لكِبرياءِ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ، وأنَّه أكبَرُ من كلِّ شيءٍ، فيُكبِّرُه ليَشكُرَ له ذلك، فيَزيدَه من فَضلِه.

ثُمَّ يَقولُ: «**سُبحانَ الَّذي سخَّر لَنا هَذا**» فَجعلَه مُنقادًا لَنا، والإشارةُ إلىٰ المركوبِ، «**وَما كنَّا له مُقْرِنينَ**»، فَما كنَّا نُطيقُ قَهرَه واستِعمالَه لوْلا تَسخيرُ اللهِ سُبحانَه وتعالَىٰ إيَّاه لَنا، «**وَإنَّا إلىٰ ربِّنا لَمُنقلِبونَ**»، أي: وإنَّا إلىٰ رَبِّنا من بعدِ مماتِنا لصائرونَ إليه راجِعونَ.

فإنَّ الإنْسانَ لَمَّا رَكِبَ مُسافرًا علىٰ ما ذَلَّلَهُ اللهُ له، كأنَّه يَتذكَّرُ السَّفرَ الأَخيرَ مِن هَذه الدُّنيا، وَهوَ سَفرُ الإنْسانِ إلىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ إذا ماتَ، وحَملَتْه النَّاسُ علىٰ أَعناقِهم.

ثُمَّ بَعدَ ذَلك أَثنَىٰ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علَىٰ اللهِ ودَعاهُ؛ فقالَ: «**اللَّهمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ في سَفرِنا هَذا البِرَّ والتَّقْوىٰ**»، والبِرُّ: هو الْتِزامُ الطَّاعةِ، والتَّقْوىٰ: البُعدُ عنِ المَعصيةِ، فيَمْتثِلُ الأَوامرَ

11- انظر في شرح هذا الحديث: «المفهم» للقرطبي (3/ 453-454)، و«دليل الفالحين» (6/ 458-459)، و«الفتوحات الربانية علىٰ الأذكار النواوية» (5/ 128-133)، وكلاهما لابن عَلَّان، و«موقع الدرر السنية».

ويَجتنِبُ النَّواهيَ، ثُمَّ سَألَ ربَّه أنْ يَرزُقَه مِنَ العَملِ ما يَرضَىٰ بِه عنْهُ، ثُمَّ سأَلَه تَهوينَ السَّفرِ وهوَ تَيسيرُه، وأنْ يُقرِّبَ لَه مَسافةَ ذَلك السَّفرِ.

ثُمَّ أتْبَعَ دُعاءَه بقولِه: «**اللَّهُمَّ أَنتَ الصَّاحبُ فِي السَّفرِ**»، يَعني تَصحَبُني في سَفَري، فتُيسِّرُه وتُسهِّلُه عليَّ، «**والخَليفةُ فِي الأَهلِ**» مِن بَعْدي، فتَحوطُهم بِرعايتِكَ وعِنايتِكَ؛ فهوَ جلَّ وعَلا معَ الإنسانِ في سَفرِه، وخَليفتُه في أَهلِه؛ لأنَّه جلَّ وعَلا بكُلِّ شَيءٍ مُحيطٌ.

ثُمَّ استَعاذَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِن بعضِ ما يُصيبُ الإنسانَ في السَّفرِ، وَمِنها «**وَعْثاءُ السَّفرِ**»، وهيَ شِدَّتُه ومَشقَّتُه وتَعَبُه، «**وكآبةُ المَنظَرِ**»، وهيَ تَغيُّرُ الوجهِ كأنَّه مَرضٌ، والنَّفسِ بالانْكسارِ ممَّا يَعرِضُ لها فيما يُحِبُّه ممَّا يُورِثُ الهَمَّ والحُزنَ، وقيلَ: المُرادُ مِنه الاستِعاذةُ مِن كلِّ مَنظرٍ يَعقُبُ الكآبةَ عندَ النَّظرِ إليهِ، «**وسُوءُ المُنقلَبِ**»؛ وَذلكَ أنْ يَرجِعَ فَيَرىٰ في أَهلِه وَمالِه ما يَسوؤُه.[12]

وَكان إذا رجَعَ قالَ تلكَ الجُمَلَ المَذكورةَ، وقالَ بعدَهنَّ: «**آيِبونَ**»، أي: نحنُ راجِعونَ مِنَ السَّفرِ بالسَّلامةِ، «**تائِبونَ**» مِنَ المَعصيةِ إلىٰ الطَّاعةِ، «**عابِدونَ، لربِّنا حامِدونَ**»، أي: مُثْنونَ عليه تعالَىٰ بصِفاتِ كَمالِه وجَلالِه، وشاكِرونَ له علىٰ نِعَمِه وأفْضالِه.

والمَعْنىٰ: أنَّنا في طَريقِ عَودَتِنا إلىٰ بَلَدِنا ومَوْطِنِنا وأهْلِنا، وقدْ عَقَدْنا العَزْمَ علىٰ العَوْدةِ إلىٰ اللهِ، والتَّوْبةِ الصَّادِقةِ المُقْتَرِنةِ بالأعْمالِ الصَّالحةِ؛ مِنَ الشُّكرِ للهِ، والمواظَبةِ علىٰ عِبادتِه، والتَّقرُّبِ إليه بالصَّلاةِ، وكَثرةِ السُّجودِ.

فهوَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كُلِّ حالِه يَتذكَّرُ العِبادةَ، وأنَّه عبْدٌ للهِ سُبحانَه وتعالَىٰ.

12- وفي حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ سَرجِسَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -في «صَحيحِ مُسلمٍ» (1343)- أنَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يَبدأُ بالأهْلِ إذا رجَعَ فيقولُ: «**وسُوءِ المَنْظَرِ في الأَهْلِ والمَالِ**»، بدَلَ «**المَالِ والأَهْلِ**».

المشركون: يخلصون الدعاء في الشدة، ويشركون في الرخاء

قد ذمَّ الله المشركين في مواطن كثيرة من كتابه العزيز بأنَّهم لا يلجأون إلىٰ الله ولا يُخلصون الدِّين إلاَّ في حال شدَّتهم، أمَّا في حال رخائهم ويُسرهم وسرَّائهم، فإنَّهم يشركون مع الله غيرَه، ويُقبلون علىٰ أوثان لا تَملِكُ لهم شيئًا ولا تنفعهم ولا تضرُّهم، فيَسْتَنْجِدون بها ويستغيثون بها ويُنزلون بها حاجاتهم وطلباتهم.[13]

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٥].

وقال: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾[لقمان: ٣٢].

وقال﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾[الإسراء: ٦٧ - ٦٩].

وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[الزمر: ٨].

ويقول تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[يونس: ١٢].

ويقول تعالىٰ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾[الزمر: ٤٩].

ويقول تعالىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾[فصلت: ٥١].

13- انظر كتابي: «**الشرح الميسر المفيد علىٰ أربع قواعد في التوحيد**».

والآياتُ في هذا المعنىٰ كثيرةٌ، وهي تدلُّ دلالة واضحة علىٰ ذمِّ مَن لا يعرف الله إلاَّ في حال ضرَّائه وشدَّته، أمَّا في حال رخائه فإنَّه يكون في صدود وإعراض ولَهوٍ وغفلة وعدم إقبال علىٰ الله تبارك وتعالىٰ.[14]

نـدْعُوهُ في البَحْـرِ أنْ يُنْجِـي سَفِينَـتَنَـا وإنْ رَجَعْنـا إلـىٰ الشـاطِي نَسِـيناهُ
ونَركَـبُ الـجَـوَّ في أَمْـنٍ وفي دَعَـةٍ ومـا سَـقَطْنا لأنَّ الحـافِظَ اللهُ

ولهذا فإنَّ الواجبَ علىٰ المسلم أن يُقبلَ علىٰ الله في أحواله كلِّها في اليُسرِ والعُسرِ، والرخاءِ والشدَّةِ، والغنىٰ والفقرِ، والصحةِ والمرضِ، ومَن تعرَّف علىٰ الله في الرخاء عرفه الله في الشدَّة، فكان له مُعِينًا وحافظًا ومؤيِّداً وناصرًا.[15]

14- انظر «فقه الأدعية والأذكار» للبدر (2/ 167).

15- انظر مقالًا لي بعنوان: «**الدعاء: حقيقته، شرفه، شروطه، وأحوال الناس فيه**».